أصدرت قوميسارية القضايا اليهودية في روسيا، في أواخر كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨، بياناً ندّدت فيه بسلوك الصهيونيين وممارساتهم في فلسطين، وأكدت، في بيانها، ان «الصهيونيين يحاولون طرد العرب من فلسطين، ويستعدّون لاقامة دولتهم هناك...». وأضافت: «باسم الجماهير الكادحة في روسيا، نعبّر عن تنديدنا بالصهيونيين الذين يحاولون ربط مصير الشعب اليهودي بمصير الامبريالية. ان للكادحين اليهود في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية وطنهم الاشتراكي. هذا الوطن الذي يدافعون عنه الى جانب عمّال وفلاحي روسيا». وأوضحت «ان العمّال اليهود والجماهير الكادحة يتمتّعون بكل الحقوق الاجتماعية، والمدنية، ولم يعد ثمّة عائق على طريق التقدّم وتطوّر الثقافة اليهودية». وأعلنت: «لسنا بحاجة الى أي بلد آخر، وليس لدينا أية حقوق قومية في فلسطين. اننا نعترف بهذا الحق للجماهير العربية الكادحة والبدو»[١٧].

وازاء مواقف كهذه، كان لا بدّ للصهيونية، بمنظماتها وأعضائها، من التواري بوجودها الفظ، والعلني، من على مسرح الحياة العامة في الاتحاد السوفياتي، فحُلّت منظمات، وحُوّلت منظمات صهيونية أخرى الى العمل السري، فيما دخل العديد من أعضاء المنظمات الصهيونية، ومنهم أعضاء الحزب اليهودي اليساري بوعالي تسيون، في صفوف الحزب الشيوعي، وفي منظمات اتحاد الشبيبة الشيوعية (الكومسمول)[١٨].

ويمكن القول، ان النشاط الصهيوني قد تخفّى، وخفّت حدّته في الاتحاد السوفياتي، خلال العقود التالية، حيث بدا وكأن الصهيونيين اكتفوا بالعلاقات الرسمية بين الاتحاد السوفياتي ودولتهم الصهيونية التي أُقيمت العام ١٩٤٨، في فلسطين، واعترف بها السوفيات. ووجدوا في هذه العلاقات أقنية تغطي حدّاً أدنى من نشاطاتهم، سيما وان العلاقات الرسمية تتضمّن جوانب متعددة، في الوقت الذي لم يكن فيه الاتحاد السوفياتي ومعظم الدول الاشتراكية الاخرى تقيم أية سدود في وجه الهجرة اليهودية الى فلسطين، بعد العام ١٩٤٨[١٩].

غير ان هذا الوضع شبه المستقر كان يتأثر، بين حين وآخر، بتطورات العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي واسرائيل. ثمّ ما لبث ان شهد تطوّراً دراماتيكياً بعد العام ١٩٦٧، عندما قام الاتحاد السوفياتي بقطع علاقاته الدبلوماسية مع اسرائيل، لقيام الاخيرة بعدوانها على البلدان العربية، واصرارها، تالياً، على الاحتفاظ بالاراضي التي تمّ الاستيلاء عليها في عدوان حزيران (يونيو) ١٩٦٧، برفضها الانسحاب منها. ومنذ ذلك الوقت، أخذت نشاطات الصهيونية تتلاحق بالظهور في الاتحاد السوفياتي.

ومن جملة ما ترتّب على هذا التحوّل، تغيّر مركز وشعارات الانشطة الصهيونية في الاتحاد السوفياتي، والتي، وان كانت تتمّ بشكل مستتر قبل العام ١٩٦٧ عبر القنوات الدبلوماسية الاسرائيلية، فانها انتقلت الى اوروبا والولايات المتحدة الاميركية. وأشار مؤلف سوفياتي الى هذا التحوّل بـ «ان قطع العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي واسرائيل قد عقّد الوضع، وجعل من المستحيل ارسال الجواسيس الاسرائيليين والمبشرين الصهيونيين بشكل مباشر الى الاتحاد السوفياتي، بعد ان كانوا يصلون اليه من اسرائيل... وهذه المهمة أصبحت تقع، الآن، على كاهل الاستخبارات الاميركية، والبريطانية، واستخبارات الدول الرأسمالية الاخرى»[٢٠].

ان تجسيدات هذا التحوّل، بشكل واقعي، تمثّلت في قيام «الدوائر الصهيونية باستخدام السياحة، والتبادل العلمي، والتقني، والثقافي، والتجاري، على نطاق واسع بارسال جواسيسها